

محاذير في ترجمة الفكر الغربي

بقلم نازك المدائني

ارفع من شخصيتنا ، ولذلك ينبغي لنا ان نأخذ بكل ما يقول ويعمل . ولقد سادت في بعض اوساطنا المبهورة بالغرب فكرة مضمونها أن كون الامة العربية تعيش عصرا واحدا مع اقرب جعل من الممكن والمعقول ان نكتب باساليبهم ونفتق آراءهم ونستعمل احكامهم الادبية في نقد آثارنا . وهذه النظرة على ما فيها من جانب مصيب ، تتجاهل ان لكل أمة شخصية وطبيعة واسلوبا ، وان مرجع ذلك الى تواريخ سحيقة في القدم عاشتها الامم وتكون خلالها ارتها من الدم والروح واللغة .

ان هذه الحقيقة تتحكم فيما ينبغي ان يكون عليه موقفنا من الفكر الغربي المترجم . فكل فرق في الشخصية والتاريخ بيننا وبين الغرب ينتج الزاما بالحذر من أن يجرفنا الفكر الذي ينتجه . وسوف ندرس فيما يلي هذه الفوارق القائمة بيننا وبين اقرب ، وهي - كما سنرى - تحد استفادتنا من انتاجه وقد تجعله مضرا بنا أشد الاصرار احيانا .

1 - فارق الاتجاه الحضاري

كان الشعب العربي ، منذ أقدم العصور يمثل اتجاها حضاريا يختلف عن اتجاه الغرب . ولعل الوصف الصادق لنفسياتنا هو « الروحانية والتأمل والخشوع » بينما يتصف الغربي عموما « بالادية والحسية » . وفي وسعنا أن نلاحظ هذا الاتجاه الغربي منذ بداية التاريخ المعروفة . فاليونانيون القدماء مثلا ، في عهد هوميروس ، كانوا لا يشغلون بالهم بالاخلاق وإنما يعيشون الحياة دون تحفظ او تقيد . يدل على ذلك أنهم ابتدعوا لانفسهم آلهة ترتكب الشر والخير معا ولا تعرف بينهما فرقا او - على حد تفسير الفيلسوف الفرنسي جان ماري كويو في كتاب له (1) : ان الطبيعة لا ترى في الخير والشر تضاربا ولا تعارضا ، وإنما هما عندها ، مثل الحرارة والبرودة ، كلاهما درجة في المحرار الاخلاقي ، وكلاهما ضروري لان الواحد منهما يوازن الثاني في الخليفة » . وإنما كان الاغريق يقدسون الحياة كلها ، فكل ما فيها يرتفع عندهم الى مرتبة الالهة سواء أكان خيرا ام شرا ، كما يقول نيتشه . (2) ويتضح هذا المعنى في ما نراه لهم من صور وتمائيل تشير الى تقديس الجسد والانطلاق من قيود الاخلاق .

ولو درسنا الفلسفات الاوربية الحديثة لوجدنا اغلبها مشوبا بلمسة الاتجاه المادي ، ويشاهد أثر ذلك حتى لدى الفلاسفة المتدينين مثل القديس اوغسطين ، فلمل أي قارئ لاعتراقاته يلاحظ المسحة الحسية العنيفة في حبه لله واثر العاطفة الارضية في مناجاته له ، فهو يصف الله بأنه زوج الانسانية . وتعبير الفقرة التالية عن مجمل شكل هذا الحب الذي يكنه اوغسطين للخالق : « حين احب الله فانا انما احب الضياء والنعم والعطر والطعام والنعاق . وأنه لضيء لا يمكن ان يسلبني اياه زمان ، وعطر لا تستطيع رياح ان تبده ، وطعام لا ينقص مهما أكلت منه ونعاق أرقد فيه فلا يوقظني منه ارتواء . ذلك ما أحب

الترجمة ، من وجهة النظر الاجتماعية ، ضرب من الصلة بين مجتمع ومجتمع ، تتيح المترجم فرصة يحسك فيها ذهنه بنهـنـ أجنبي له ظروف يختلف بها عن الذهن الأول . وكلما كان الفارق بين الظروف اكبر كانت المادة المترجمة اشد اثارة واعمق أثرا في اذهان القراء وارواحهم . ومن شأن الامم المتحضرة ان تلمس المعرفة وسعة الفكر ، فهي تقبل على قراءة آداب الامم الاخرى وفلسفاتنا ، ملتزمة فيها وجهة نظر جديدة تستعين بها على حياتنا ، ووسائل تعبيرية توسع آفاق لغتنا وفكرها .

وقد كان من مظاهر الانبعاث العظيمة التي انتفضت بها الامة العربية في هذا القرن ، اننا اقبلنا على الترجمة سواء آمن الغرب ام من الشرق من آداب الهند والصين وحكمتهم . علما ان الغالب علينا اليوم هو النقل عن الغرب بحيث باتت المترجمات الاوربية والاميركية تفسر مكنباننا واسواقنا ، وما زال هذا التيار يشتد ويتلاطم حتى بات علينا ان نتأمله ونرقبه .

وأول ما نحب ان نقول ان حماسنا في ترجمة الفكر الغربي أمر لا تنقصه المبررات : ان الغرب الذي سبقنا الى التطور الحديث قد خاض قبلنا في كثير من القضايا الفكرية الجديدة والمسائل الاجتماعية المعاصرة وغيرها مما نعرض الى أن نخوضه في بلادنا ، ولذلك نستطيع ان نفيد من تجاربه في مجابهة بعض فضاياتنا المشكلة . غير ان في موقفنا من هذه الترجمة محذورين خطيرين قد نقع فيهما ان لم ننتبه .

(اولهما) ان بعض المترجمين يتخذون مما يترجمونه موقفا ضعيفا فيه هوان واستخفاء ، فيفترضون في قرارهم ان الامة التي تحتاج الى الترجمة ، هي بالضرورة اضعف شخصية وفكرا من الامة التي تترجم عنها فكانما الحاجة الى الترجمة قرينة النقص الفكري وضحالة المعرفة . ولا يخفى ان هذا موقف مفلوط يسيء الى اية ترجمة تنقل الى لغتنا ، لاننا ندر ان الامم تتباين في التفكير والتعبير ، وتختلف في الاتجاه والمعتقد ، ومن ثم فان قراءة آداب الامم الاخرى تلمس اذهاننا لمسة الايحاء ، وتشق لنا دروبا جديدة من المعاني . ولا نلظن الامة التي ينقصها الفكر المحلي الناصح تنتفع بالترجمات ، وإنما تقع في التقليد والنسخ والمحاكاة فيمسح ذلك شخصيتها ويضع مكانتها .

وقد يكون من المفيد ، في مداواة هذا الاحساس ، ان نتذكر ان الغرب الذي يعطينا فكرة انما رد الينا اليوم بعض ديونه القديسة المتراكمة . فكم قد اخذ في غابر القرون عن ابن سينا وابن الهيثم وابن رشد ، والفزالي والمصري وابن خلدون وسواهم من اعلام الفكر العربي . ثم ان حاجتنا العربية المعاصرة الى دراسة الفكر الغربي لا تكاد تقفل عن حاجتنا الى دراسة الفكر العربي ، فانما نحن متأخرون لاننا هبطنا عن مستوانا العربي نفسه . وان المرء ليحزن حين يدرس تاريخ الفكر العربي والمستويات الثقافية العالية التي بلغها ، ويقارنها بما نحن عليه اليوم من خمول وضحالة .

والمحذور (الثاني) ان اعجابنا الشديد بالفكر الغربي قد يبل قدرتنا على تمييز ما ينفعنا مما يضرنا . فنترجم كل ما يكتبون ونأخذ من المواقف والفلسفات ما يتخذون بمعزل عن حاجتنا وظروفنا . ومثما هذا المحذور انهارنا بمدينة الغرب الالية ، فما نكاد نتأمل صواريخه واقماره وكشوفه العلمية الجبارة حتى نتخيل ان اخلاقه - موازي علومه ، وان مبادئه لا تقل روعة عن مستواه العلمي ، وان شخصيته

(1) ترجمة شخصية عن كتاب غوربوف A sketch of Morality Indipendet of Obligation or Sanction

وهو مترجم ترجمة رائمة الى العربية بقلم الامتياز سامي الدروبيسي ويؤسفني الا تكون ترجمته بين يدي الان .

(2) كتاب نيتشه المتع The Birth of the Tragedy .From the Spirit of Music وهو فيما اعلم غير مترجم الى اللغة العربية

حين أحب الله» (1) .

كل هذا يشير الى موقف حسي من الذات الالهية يخالف موقفنا في الوطن العربي حيث نفتقد الا شيء يقربنا من الله مثل التأمل الخالص المنزه عن تأثيرات الحواس . اننا نلمح الزهد والحكمة والتأمل حتى في شعر العرب الذين مجدوا الخمر وعالم الحواس مثل طرفة بن العبد . وما يلبث اللاهون الممعنون في المجون حتى يتوبوا تنحدر دموع الندم على خدود كهولتهم مثل ابي نواس . فكأنما النفس العربية بطبعها متاملة خاشعة فما تكاد تنطلق حتى تعاودها نزعتها الفطرية . ومع ان الصوفيين في الادب العربي لا يمتنعون عن منادة الله بالنجوى الحسية ، غير ان كل حسية لديهم انما هي رمز لمعنى روحاني . فهم يتحدثون - كما يقول ابن الفارض - عن «معنى وراء الحسن» (2) ونحن نعلم من مطلع التائية الكبرى ان الحسية التي ترمز الى الله ذات محيا «يجل عن الحسن» . والعقيدة العامة لدى العربي ان الحواس بنهما وضجيجها ، تشغل الذهن عن الارتقاء ، ولا يتم ادراك الله تعالى من دون ارتقاء . ولسنا وحدنا في هذه النزعة فان الشرق كله يكاد يشاركنا اياها . وكل من يلم بفلسفة «يوغا» في «البغا فاديتا» Bagavad-Gita الهندية يدرك انها تنتهي الى مثل ذلك لا بل انها تزيد عليه زيادات قاسية من الرياضة الروحية تهدف كلها الى تطهير النفس من سطوة الحواس .

ولعله ثابت ان الفرد العربي ، مهما قل نصيبه من العلم والثقافة ، يمتلك في اعماقه حسا صوفيا يمنحه خشوعا دائما امام الله والحياة والقيب . ومن مظاهر ذلك ايمانه بالرؤيا وتأويلها ، وبالدماء وآثاره ، وبعالم الروح وخلود الموتى . كما يتميز العربي بانه يذكر الله في حياته اليومية كثيرا . وقد تركت النزعة الروحية آثارها في تاريخنا قديما وحديثا ، وهو امر لا تكاد نجد له مثيلا في كتب الغرب .

بعد هذا العرض العاجل للروحية العربية والمادية الغربية يصبح واضحا ان ترجمة الفكر الغربي الى لغتنا ينبغي ان تتم في كثير من التحفظ ، لا لاننا نخشى ان نهدم طبيعتنا ، فان طبائع الامم لا تهدم قط ، وانما لان انبهارنا بمدنية الغرب يستطيع ان يجعلنا نسيه فنتمرد على طبيعتنا كما يتمرد صبي غر ، وبذلك نضيع فترة من الزمن حتى نرجع الى انفسنا . ولسوف نكتشف يوما بعد يوم ان طبيعتنا هي ضمان ابداعنا لجرد انها طبيعتنا المرء لا يدع الا في حدود طبيعته . هكذا ابداع العرب بالامس ، وهكذا تبعد أوروبا اليوم . ونحن ، في الوطن العربي نحتاج اليوم الى كل لحظة من حياتنا ، فلا ينبغي ان نبدد شيئا في الضياع والتهيه .

٢ - فارق الموقف الاجتماعي

تبدو لنا محاذير الاندفاع في ترجمة افكار الغربي الى اللغة العربية اشد واطرف حين ندرس الفرق الظاهر بين الموقف الاجتماعي الذي تقفه الامة العربية والاخر الذي يقفه الغرب . وينشأ ذلك الفرق بدءا عن ان الغرب يقف في نقطة من تاريخه الفكري والحضاري يختلف عن النقطة التي تقف فيها نحن اختلافا ملحوظا . فقد بلغ الغرب مرحلة النضج الحضاري منذ قرون ، وعرف هذه المدنية الحديثة معرفة مباشرة ، وعاش مراحلها النامية عيشة متدرجة على مدى مئات السنين . ولذلك فان المدنية المعقدة المعاصرة لم تفاجيء الغربي كما فاجأتنا وانما لاحت له دائما قضية بدئية يعيشها كما عاشها آباؤه واجداده . لقد ولد

(1) ترجمتي عن كتاب

The Confession of St. Augustine

ولا اظنه مترجما الى العربية

(2) بيت ابن الفارض : ومعنى وراء الحسن فيك شهدتة

به دق عن ادراك عين بصيرتي

(3) مطلع التائية الكبرى :

سقتني حميا الحب راحبة مقلتي

وكأسي محيا من عن الحسن جلبت

فوجد المدن الشامخة مبنية حوله ، والقاطرات تزحف تحت الارض ، والكشوف العلمية قائمة وان زادت نضجا مع السنين . كما وجد امامه مجتمعا كاملا عريقا في نظمه وآدابه وثقافته .

كل هذا يخالف موقفنا في الوطن العربي حيث جاءتنا المدنية تركض ركضا اثنه بموجه جبارة من امواج بحر عظيم . ولقد كان لهذا الاختلاف بين الغرب وبيننا فسي متلقى المدنية الحديثة نتيجتان مهمتان :

(الاولى) ان الفرد الغربي باعتباره لمدينته ، يفقد نشوة المفاجأة واللذة التي يجدها الفرد العربي . يرى الغربي مدينته شيئا طبيعيا مألوفيا بينما نراها نحن باهرة سحرية الجمال بما تجدد من حياتنا ومجتمعنا . ان مفاجأة الانتقال من البدائية الى المدنية قد احدثت في الارض العربية هزة حياة عظيمة . فكاننا أرض حية افترت واجديت قرونا ثم افاقت فجأة على انهيار سيول متلاحقة من مياه باردة منعشة تفلطت في كل شبر منها فتفجرت لمروها الخصوبت النائمة . او كأننا موجة بلغت قراراتها السفلى واستجمعت قواها جميعا لقفزتها التالية . وهكذا نجد المجتمع العربي اثنه بعملاق سليم البنية نام طويلا واستجمع قواه ، حتى اذا افاق وفتح عينيه وجد حوله فجرا عذب الجمال يمتد ويفسر الدنيا . انه يحس في اعماقه فرحا مانجا ويستشعر رغبة جارفة الى ان ينهض ويعمل ويعيش ملء حياته . وهو في موقفه هذا يختلف عن المجتمع الغربي الذي الف مدينته فلا مفاجأة تسحره ولا يقظة تهزه فهو يعيش في برودة وسام .

والنتيجة (الثانية) هي ان الفرد الغربي الذي بلغ ذروة مدينته قد فقد الهدف العام الكبير الذي نمتلكه نحن . انه يولد فيجد المدن قد بنيت وقامت حوله . لقد بناها له اجداده فوجدها جاهزة بمعاملها واحياتها ومدارسها ودوائرها وانظمتها . فكانه جاء الى الوجود متأخرا او هكذا يحس . ويجعله ذلك كله يفقد الشعور بقيمته في المجتمع . فالمدينة الجاهزة تفرض عليه سطوتها وسيطرتها وتبدو له جبارة ظالمة مبهمة . ويعرف قراء الادب الغربي المعاصر كيف يحس الفرد هناك نحو المدينة التي يعيش فيها فهو يسميها عدوة ويصفها بالقبح والفجور ويرى نفسه بين يديها حيوانا صغيرا ضعيفا لا حول له ولا قوة .

واما نحن فان حياتنا العربية تمنحنا اهدافا شاسعة تنعطف اليها ونسعى بحيث لا يبقى لنا فراغ . ان مدينتنا يافعة تنمو وتستقي الضياء من الشمس ومن سواعدنا المتعطشة للعمل ، والوجود بين ايدينا خام يسألنا ان نعيش ونبني ونزدهر . ان حولنا مئات من القفار العربية المشتاقة الى السواعد العاملة وعلينا ان نسقيها ونزرعها خضرة ومدنا وحضارة . يضاف الى ذلك ان ديارنا ترزح تحت وطأة الاستعمار الغيظ ، واسرائيل تقوم في قلب اراضينا وذلك وحده يعطينا من الانشغال والعمل ما يملأ حياتنا ويفضها خلافا للغربي الذي حقق استقلاله منذ ازمة بعيدة وبذلك فقد الهدف الكبير وامتلك مكانة فراغا وترفا وحياة لينة ما يلبث حتى يسامها ويحس رتابتها وجديتها . ان خيرات الوطن العربي ، مما سرقه الاستعمار ، ما زالت تتدفق على افراد غربيين يملكون كثيرا من المال والفراغ وقليل من الاهداف . فلا عجب في ان تنهار نفسية الفرد العربي ، ويطبق الظلام على المجتمع هناك كما يصور لنا الادب الغربي المعاصر . ان علماء الحضارة والسلالات يقررون مبدأ عاما ثبتت حكمته هو ان الشعب الذي يفرغ من الكفاح ويخلد الى البطالة والترف ينتهي الى الزوال . والعرب يقولون ان الفراغ مفسدة . وقديما شخص الرسول الكريم هذا المعنى فقال لامته « اخشوشنوا فان الترف يزيل النعم » .

وينعكس احساس الفرد الغربي هذا في انتاجه الفكري والادبي وهو كله تقريبا من شعر وقصة ومسرح ونقد وفلسفة وفنون ، كله يعكس اليوم اليأس والغيظ والتشاؤم والربح ، فكان الفرد قد استنفد حيويته وصار الى القنوط والذبول . وليس « غيثان » جان بول سادتر الصورة الوحيدة لما نقول ، فقد تبعه وقلده مئات في الغرب . ومن هذه الصور كلها تستنتج ان العرق العام وراء الفكر الغربي المعاصر هو

ان الانسان وحيد في الوجود ، وان حياته عبث لا طائل وراءه ، فخير ما يمكن ان يصنعه ان يموت . ونجد في رواية La Condition Humaine للكاتب الفرنسي المعاصر اندريه مالرو هذه العبارة

« يستطيع الانسان ان يجد الرعب في اعماق نفسه دائما . وكل ما يحتاج ان ينظر عميقا » .

ولعل هذه العبارة تصلح مفتاحا لنفسية العربي اليوم . انسه مرعوب ، تلك هي صفته الاولى ومنها يتفرع القلق والنهم الجنسي والجريمة ، ومنها ايضا تنبع معاداة المجتمع واحتقار نظمه . ان هذا الفرد العربي يحتقر الاخلاق فيسخر في كتبه من الرحمة والصدق والعفة والشرف سخرية وقحة يستنكرها العربي كل الاستنكار . ويزيد العربي فيزديري الوطنية ويضحك من الاخلاص للمجتمع ويستخف بفكره الاسرة والمائلة . ولذلك نجد في رواية مشهورة لالبيير كامسو L'étranger ان بطلها يذهب في يوم وفاة امه ليلهو على الشاطيء مع صديقة له ، ويتحدث عن امه المتوفاة بلهجة خالية من الشعور خلوا عجبيا . وهذه النغمة قد شاعت شيوعا عظيما في ادب الغرب المعاصر لان المثل الاعلى للشخصية اليوم هو الانسان الذي لا يحب أي أحد ولا يحترم أية مثل ولا يدين بأي مبدأ . ان الحب باشكاله كلها يبدو له تقيدا لحرية ، سواء اكان حبا للوطن ، ام حبا للمجتمع ، ام حبا لحييته او زوجة أوام ، ام حبا للحياة نفسها . وحتى حب الله يتعارض مع حرية ، ولذلك نسمع « اوريست » بطسل مسرحية « الذباب » لجان بول سارتر يخاطب الهه قائلا : « انت الله ، وأنا حر » .

ومن صور هذه الفلسفة في الفكر الاوربي الحديث مسرحيات لويجي بيرانديللو وهي في مجملها تقوم على احساسه بان الحياة عقدة لا حل لها وان الحقائق تزوغ ولا تثبت فلا يبقى للانسان غير ان يجن ويفقد عقله مثل « هنري الرابع » . وعندما نقرأ ج.ب. بريستلي في مسرحياته الجميلة « كورنيلوس » او « الزاوية الخطرة » او « الزمن والكوني » او « اناس في عرض البحر » نخرج متشائمين كارهين للحياة . وماذا نجد في مسرحيات يوجين اونيل الاميريكي ؟ ان مسرحياته « الحداد يلاثم ايليكترا » و « القرد ذو الشعر » و « الحوار الغريب » مملوءة بالظلام والياس وسوء الظن بالانسان . وماذا عن آرثر ميلسر وتنسي ويليامز وسواهما من مسرحيي اميركا المعاصرين ؟ ان المرء ليحس بالفسيق والتشاؤم من قراءة كل هذا الانتاج المظلم المريض فكان الغرب قد مات روحيا ولم يعد يعطي ابناءه الا المرض والفشيان والجريمة .

ومن المحزن لي ان اجد كثيرا من ادبائنا وفنانينا اليافعين المعجبين بالفكر الغربي ، يندفمون في التأثر بهذا الادب وتلك الفنون اندفاعا شديدا وبذلك يبدون مواهبهم وخصوبة اذهانهم . وطالما هنري الشوق الى ان اقرأ ادبهم بما اعرف لهم من موهبة واقتدار ، فما اكاد ابدا حتى يعدمني الظلام والجريمة والياس ، فاكف عن القراءة آسفة . والى هؤلاء الموهوبين اليافعين العرب اتجه بهذا البحث .

ان هذه النظرة الى الحياة ، في شطريها اللااخلاقي والتشاؤمي ليست هي النظرة العربية ، فقد كانت العروبة منذ اقدم عصورها متمسكة بالاخلاق والمثل ، ذلك على الرغم من وجود المروق في كثير من الفترات . ولم يصبح الانحلال الخلقي فلسفة لدينا على الاطلاق ، وانما كان يعد ، حين يقع ، خروجا فاسدا على قانون المجتمع ، وسرطان ما كان المارق يزهو ويتوب مثل ابي نواس وعمر بن ابي ربيعة .

يضاف الى ذلك ان التحلل والتشاؤم ازدراء الحياة مواقف لا تلائم حياتنا العربية اليوم ، ذلك اننا لكي نبني مجتمعنا الجديد ونحرر ديارنا من عبودية الاستعمار ، نحتاج الى الاخلاق والعمل والتفائل . وما من شيء يستطيع ان يفسد علينا جهودنا مثل تبنينا لهذا الفكر الغربي المريض . فاذا اتخذ شبابتنا نماذج الادبية والفكرية من اعلام الغرب المعاصر مثل سارتر ومورافيا وكافكا فالى اين سننتهي ؟ اقول هذا وأنا اول المعجبين بهؤلاء الاعلام ، غير ان الاعجاب الادبي لا يعني ان اتخذ مواقفهم الاجتماعية والفكرية ، وانما احب مقدرتهم الذهنية

الرائعة وأساليهم الادبية المكتملة وصورهم وغير ذلك ، وفي اتناجهم كثير ينفعني ويشحد ذهني ، اما لا ينسجم مع عروبي وحياتي فانا اقرأه في تحفظ واقف منه موقف الناقد المحلل .

والحقيقة ان اتجاهات الكتب المترجمة عن الغرب في السنوات الاخيرة تقلقتنا ، حتى اصبحنا نخشى على نفسية القاريء العربي من رشاش هذه الموجة التي تاتيها راكمة من الغرب . وقد نصفنا هذه الموجة « بالتبذل » ولا يعني ذلك اننا غافلون عما فيها من فكر واسلوب وثقافة . ذلك لان « التبذل » هو صفتها من وجهة نظر الامة العربية ، فليس تعنيا صفتها من آية وجهة نظر اخرى . ان لنا حاجتنا العربية وهي تلمي علينا احكامنا الاجتماعية وينبغي ان تمليناها .

وعلينا ان نتذكر ان مترجمي هذه الكتب اكثرهم حسنو النية وانما ينقلونها الى لغتنا لايمانهم بحرية الفكر . غير ان الذي يفوتهم ان « حرية الفكر » ليست كلمة عامة معزولة عن مصلحة من يؤمن بها . فانما تكون الامم حرة الفكر بمقدار ما تستطيع التوفيق بين مبادئها ومصالحها . واما ان تعجب الامة بالاراء التي تهدمها وتنسيها اليها فما تلك بحرية فكرية وانما هي ، اذا تاملناها عبودية ومذلة . ولذلك ينبغي ان نتحكم في تيار الكتب المترجمة الى لغة الضاد فنختار منها ما ينفعنا ونبتذ ما يضرنا .

٣ - فارق الموقف الادبي

وهو فارق يفرض نفسه فاذا تجاهلناه ونحن نترجم آثار الغرب كنا نحن الخاسرين . ولقد عانى الادب العربي في السنوات الاخيرة من تعسف الترجمات وتجاهلها لروحية آدابنا ما جعل القن يقع على اكناف الامة العربية كلها .

واول ما يشكو منه الباحث المتأمل هو الفكرة المفلوطة التي شاعت في الاوساط العربية المثقفة حول الشهرة وطبيعتها . ان طائفة من المترجمين والقراء يحسبون ان كل ما هو مشهور في الغرب قابسل لان يكون عالميا ومن ثم فلا بد ان ينال الشهرة عينها في الوطن العربي . والواضح ان هذه الفكرة تتجاهل الفروق بين الشعوب ، بينما تبسى تلك الفروق تتحكم في شهرة المفكرين . والواقع ان الاديب انما يشتهر في أحد الاوساط بسبب ثلاثة مقومات يضمنها ادبه للقراء في ذلك الوسط :

(اولها) ان ادبه يعبر عن الحياة الاجتماعية التي يحياها ذلك الوسط مثال ذلك ان مسرحيات بيرانديللو تقدم اشخاصا ذوي آداب واره اوروبية بحيث تجري اجتماعاتهم واحاديثهم وفقا لتقاليد المجتمع الاوربي الحديث . ولذلك يجد الاوربي لذة في شهود تلك المسرحيات . و (ثاني) مقومات الشهرة ان الاديب يعبر عن متوسط المستوى الفكري العام للامة . مثال ذلك ان الادب الغربية المعاصرة مفعممة بالتعقيد الفكري والحيرة الفلسفية والاحساس بضياح الحقيقة على وجه يالفه المتعلم الغربي الحديث بكثرة ما قرأ من امثاله وشهد على المسرح منذ عشرات السنين . وليس من الممكن ان يتفوق مواطننا العربي هذا المستوى من التعقيد بظفرة ، وانما يصبح ذلك معقولا اذا تدرجنا سنين طويلة في تدريبه على ذلك باطلاعه على النماذج البسط من آداب الغرب ومهما يكن فان درجة التعقيد في فكر الامة مسألة اجتماعية محضة تتحكم فيها آلاف العوامل . وان من الامم من يؤثر البساطة بفطرتها فلن تقبل التعقيد مهما دربناها .

ومن الطبيعي ان تكون اللغة (ثالث) مقومات الشهرة . فهما قلنا عن مضمون الادب فانه يبقى ظاهرة لقوية قبل كل شيء . ولعلنا من البدايات ان لغات التباينة اساليب متباينة في الاشتقاق والصيغة وتركيب العبارة ولغات البلاغة . وكلما كان ادب الاديب اكثر عناية بالبلاغة كان نقله الى اللغات الاخرى اصعب من نقل النشر . ويعرف الذين درسوا شيكسبير ان نقله الى العربية يكاد يكون محاولة عقيمة وذلك لكثرة ما في شعره من استعارات وتشبيهات ومجازات وتلويح وبلاغة وسوى ذلك مما لا ينقل من لغة الى لغة . واما ما ترجموا من

محاذاير في ترجمة الفكر العربي

— تيمة المنشور على الصفحة ٧ —

مسرحة فلا يزيد على نقل « حكايات » ذلك المسرح .

وبعد استذكارنا هذه العوامل يحق لنا أن نتحفظ فيما نختاره للترجمة الى لغتنا . فليس كل كتاب مشهور لسارتر او سواه يستحق ان يترجم الى لغة الضاد . وقد تستهجن اوساطنا مسرحية مشهورة لبرناردشو او رواية لجميس جويس ويكون ذلك منها دليلا على قسوة شخصيتها واصالة ذهنها . ولن يكون الحكم علينا بانحطاط المستوى ، او فساد الذوق في هذه الحالة الاحكام من وجهة نظر غير عربية . و « أدق » و « المستوى » ليستا كلمتين عامتين وانما هما معنيان نسيان تتحكم فيهما ظروف الامم وحاجاتها .

ولهذه الاسباب كلها يدهشنا أن نجد ادب طائفة من كتابنا يفص باسماء الغربيين مثل كوكول وبالزك وولتر بيتر وبول جيرالدي وكسان هؤلاء الكتاب الافاضل يفترضون ان الاعلام الغربية تستثير الذاكرة العربية كما تستثيرها اسماء عنترة والمتنبي والبهاء زهير . . والامر بعيد عن ذلك . واننا نخشى ان في ترديد الاعلام الاجنبية عبر رواياتنا وابحاثنا لونا من التعالي على المستوى العربي . ولذلك نود لو كسف مثقفونا عن حشد الاعلام الغربية في انتاجهم ، لاننا نريد ان نقي قراءنا العرب في جهلهم لهذه الاعلام وما وراءها من ثقافات ، وانما لاننا لا نؤمن بان هذا هو الاسلوب في تقديم الشهرة الاجنبية السى الذهن العربي . ولسوف نعرض بعض اقتراحاتنا فيما بعد .

ولعل الوجه الاخطر من اوجه نقل الشهرة نقل ارتجاليا من الغرب اليها هو نقل الآراء . فكان شهرة الاديب الغربي تبرر للغرب العربي ان يعتقد آراءه الاخلاقية والاجتماعية جميعا . وقد لاحظنا ان طائفة من كتابنا العرب يتبنون آراء الفسبب المتشائمة للاخلاقية فينقلون في ادبهم معالم من الجو المظلم الخاق الذي تتصف به آداب اوروبا المعاصرة ذلك على الرغم من الاختلاف الواضح بين ظروفنا المبشرة في الوطن العربي وظروف اقرب الذي بات يتحلل يوما بعد يوم وتسير روحيته للانقياد . وما هذا المسلك من ادبائنا هؤلاء الا نقلا متسفا لشهرة كتاب غربيين لا جنود لتفسياتهم في الارض العربية .

ويدخل في هذا الباب ايضا ما دأب عليه جماعة من التفاد العرب في السنوات الاخيرة من نقل الاحكام الادبية التي يصدرها نفساد الغرب السى عالما دونما تمحيص او تمييز . فاذا ابدى ايليوت او اميسن او ريتشرد او فركنس رأيا ادبيا ، حسب نقادنا ان ذلك الرأي ينطبق بالضرورة على ادبنا ، ومن ثم فهم يطبقونسه على الادب العربي فورا ، وتكاد حماسة هؤلاء النقاد العرب — ومنهم نقاد مبدعون ذوو اذهان حرة — تجعل مقالاتهم تقص بالاعلام الاجنبية والاصطلاحات الدخيلة على ادبنا . وقد يكون مصدر هذه الظاهرة اعجابهم المفرط بالنقد الاوربي وانهارهم بنظرياته . ونحن نفر ذلك ونشاركهم اعجابهم لا بل انني شخصيا تلمذت على طائفة من كبار نقاد الغرب في دراستي للماجستير مثل الاستاذ فرانسز فركنس وآلن تيت وريتشرد بلاكر ، فانا اكن لهم الاعجاب والتقدير . غير ان هذا الاعجاب لا يبرر لنا ان نتسلف في تحكيم آرائهم في ادبنا المحلي لان تراثنا يختلف اختلافاسا كبيرا عن تراث الغرب واما ما يصح ان نتعلمه من النقد الغربي فهو سمة الذهن ، واسلوب البحث وموضوعية الاحكام واصالة الرأي وقوة الاستنباط . والحق ان ادبنا العربي ينبغي ان يعطينا نظريات في النقد تخالف نظريات النقد الغربي سينتهي بنا الى محذورين :

١ — التسلف في تطبيق قوانين اجنبية على ادب عربي له تاريخه ومزاجه ولغته واسلوبه .

٢ — اهمال جوانب مشكلة خاصة بادابنا مما لا تتناوله كتب النقد في اوروبا واميركا لان مشاكلنا الادبية غير معروفة في آدابهم .

مثال : نحن والرومانسية .

نحب ان نورد مثلا ما يوقعنا فيه نقل الاحكام الغربية الى عالمنا الادبي . يحكم انقاد المعاصرون في اقرب بان « الرومانسية » لونادبي عتيق لا يلام عصرنا . وقد بلغ من ازدرائهم لها ان باتوا يستعملون لفظ « رومانسيكي » في نعت من ينتقصونه من الشعراء . وقد نقل فريق من الادباء العرب هذا الحكم الى عالم النقد عندنا فصار الشعراء اليافعون يتنافلون بينهم ازدراء « الرومانسية » وكانها نسبة يعير بها الشاعر . وكان بديها أن يصحب ازدراءهم هذا ما يزدريه الغربيون ، اعجابهم بما يعجب به اولئك انقاد ، فانتشرت في الشعر الجديد عندنا السروح الغربية المعاصرة وقوامها التعقيد والياس وتناقض انصور وازدراء المجتمع اما من وجهة النظر العربية فان « الرومانسية » ينبغي ان تكون مستحسنة في الشعر ، لان اقرب انما سئمتها بعد ان شاعت قرنا من الزمان تقريبا حتى لم تعد تؤدي غرضا . اما نحن فلم نستعملها الا لمحة في آدب جبران خليل جبران وبعض من عاصروه مثل نقولا يوسف وطائفة من الشعراء . والحق اننا لم نعرف الرومانسية ، فكلم لها من اجواء وتم فيها مما لم تتفوق ، وسنمر عليه مرورا عاجلا في الفقرات التالية :

١ — تدعو الرومانسية دعوة شديدة الى الروح الفردية المستقلة ، والنظرة الذاتية التي تنبثق عن شخصية الشاعر ، وهذا يلائمنا لاننا نحب ان يتحرر الشاعر من سطوة القبيلة او العشيرة او العائلة . فكلمنا كان الشاعر ذاتيا كان ذلك انفع لمجتمعا حيث نحتاج السى ان نمسي الروح الخلاقة ذات الفكر المنفرد .

ويتفرع من هذا ايمان الرومانسية بتمرد الفرد على الاوضاع الفاسدة التي تحيط به ، لانها في جوهرها دعوة الى الايمان بكل ما هو جميل وعظيم واخلاقي . ومن ثم فهي تمجد البطولة .

٢ — تدعو الرومانسية الى احياء الادب القديمة وتمجيد التاريخ القومي بالقاء نظرة حديثة عليه فيها فردية الشاعر ونظرته الذاتية . وما اظننا نحتاج اليوم شيئا كما نحتاج هذا . والرومانسية في ذلك بعكس الفلسفات الوجودية والعدمية المعاصرة لان هذه الاتجاهات الجديدة تحتقر الايمان بالمجتمع وتهزأ باتوطنية والقومية وتسخر من المثل .

٣ — تمجد الرومانسية العواطف الحية الخصبية . والعاطفية فيها تكاد ترادف الانسانية . واما ما في بعض الرومانسية من كآبة وحب للكآبة فليس ذلك ملازما لها . واللمسة العاطفية ضرورية للشعر العربي والروح العربية ، لان الصبغة العامة للفكر العربي عبر عصوره كانت صفة ذهنية لا عاطفية ، ولذلك شاعت الحكمة في الشعر وشاع السجع والبديع وعرف الاعمى ، فكل ذلك من عمل الفكر لا العاطفة ، ومن ثم فنحن حين نتخذ الرومانسية موقفا انما ندخل على ما افناه تقيسرا ونوسع الحياة العربية في اتجاه جديد .

٤ — تؤمن الرومانسية بحيوية اللغات الانسانية وقدرتها على النمو والتجدد ، وقد عرف الرومانسيون بالجرأة في صياغة الصور والتشبيهات والاستعارات . ونحن في الشعر العربي نحتاج الى ذلك على ان يتسم في حدود الاطار العام للنحو والبلاغة .

٥ — من ملامح الرومانسية في الشعر صفة الفئانية والموسيقى العالية الرنين وهذه الفئانية هي نفسها تجديد بالنسبة لشعرنا الذي اتصف غالبا بالحكمة والصياغة اللفظية المحكمة والايجاز الشديد وشيء من التثنية ترد هنا وهناك فيه . يضاف الى ذلك ان الموسيقى تضمن للشعر اليوم ما يتوق اليه من استثارة العواطف القومية في الجماهير الكبيرة ، ولذلك نخسر خسارة كبيرة حين نتخلي عن الرومانسيكية ونعتمد اتجاهات ايليوت او ياوند في الشعر . لان هؤلاء المعاصرين في الغرب يزدرون العاطفية والوضوح والموسيقى ازدراء ملحوظا ولعل مفهوم الحق في ان يزدروا ما يشاعون ما دام ذلك لا يضرب اوطانهم ولا يمس قضاياهم القومية . اما نحن فان تقليدنا لهم في هذا الازدراء يسيء الينا ويعرقل تحرنا الاجتماعي . واننا لنكون ضعفاء الرأي لو تخلينا عما نحتاج اليه لمجرد ان نقاد اوريا يستهجنونه . فنحن في ذلك اشبه بمريض يتوقف شفاؤه على شرب الحليب ، ومع ذلك يقاطع

الحليب لان جاره السليم يكرهه . ان لنا ظروفنا وحاجتنا فما لنا وللغرب ؟ وليقاطعوا الرومانسية ما شاءوا ، ... لماذا نقاطعها نحن وهي تضم مصلحتنا ؟

المشكلة وحلها

والان بعد ان استعرضنا المحاذير في تقبلنا للدب الغربي على علته ، يصح ان نسأل عن دواء هذه العلة . فماذا ينبغي لنا ان نفعل انستغني عن الفكر الغربي ونسد دونه ابوابنا ؟ أم الاحسن ان نتحاشى مزالقه بوسائل نتخذها ؟ ولا اظننا سنختلف في ان الاستغناء عنه غير ممكن ولا مقبول ، فهو غني جميل فيه خير كثير ونحن نخسر باطرافها له خسارة كبيرة . واذن فلا يبقى لنا الا ان نتخذ لانفسنا وسائل حماية تقينا ما في هذا الادب الوافد من شرور لتصفو لنا مزاياه وفوائده .

والواقع ان هناك طرقا كثيرة تتحاشى بها الامم ان تفقد شخصيتها في غمات ما ترجمه من آداب الامم الاخرى . وان نذهب بعيدا في التماس هذه الطرق ، فان تاريخنا العربي يعطينا درسا قيما نستفيد منه . فقد جابهت الامة العربية عبر تاريخها عصر ترجمة مشهور هو عصر المأمون وما بعده . وما زال في وسعنا ان نتابع حتى اجدادنا العظام في هذا السبيل . ولسوف نجد ان فنونهم الالوان كان الانشاء : كانوا يقبلون آثار الامم المتحضرة الاخرى ويتفوقون منها ما يلائم الحاجة العربية والظروف القائمة . وهكذا اقبلوا على ترجمة الفلسفة اليونانية في تعطش ولهفة ولكنهم حذفوا منها كل ما يتعلق بالشرك وتعدد الالهة . ونراهم يترجمون عنهم الرياضيات والمنطق ، غير انهم تركوا المسرح الاغريقي فلم يرد في سجلاتهم ذكر سوفوكليس ويوربديس وارستوفان على شهرتهم في الفكر الاغريقي . وكان الاساس الذي يركزون اليه مصلحة الامة العربية ، لا مقاييس الشهرة في اوربا . ولا نجدهم قد قلقوا مما يمكن ان يقوله عنهم الغربيون . فلقد كانوا افراد امة عظيمة تثق بنفسها وبموهبتها واتجاهها ، فمقاييسها الشخصية هي المقاييس ومصلحتها العربية فوق كل مصلحة .

واذن فلم لا يكون هذا هو قانوننا اليوم ايضا ؟ لماذا نترجم كل ما هو مشهور في اوربا دون نظر الى مقاييسنا واحتياجاتنا ؟ ان علينا ان نخضع كل ما نترجمه عن اقرب لعملية تشبه « التعريب » على نحو ما فعل اجدادنا . ولسنا نقصد بالتعريب ما يقصد به اليوم من تحريف في اللغة والافكار على هوى المترجم ، وانما نريد ان يصيغ الاكسر المترجم بالروح العربية ، كما صيغ افلاطون وارسطو من قبل . فما اوضح الفرق بين افلاطون كما عرفه الفكر العربي وافلاطون الاغريقي . ان القارئ يكاد يحس احيانا انهما فيلسوفان لا فيلسوف واحد . ولم ينشأ ذلك عن تحريف انزله العرب به ، وانما ينتج من ان المترجمين العرب فراوه قراءة عربية الطبيعة متائرة بالتراث القومي والذهن اللغوي للامة ، وقد توسعوا في الجوانب التي تهتمهم من افلاطون فوقفوا عندها ونبدوا ما عداها ، وبذلك اصبح افلاطون عربيا على وجه ما ، ومن ايسر صور هذا انهم قالوا في تسميته « افلاطون » فقلبوا الناء طاء . وكانت لهم شبه قواعد في نقل الاعلام وتعريبها بحيث يستيفها اللسان العربي .

والواقع ان الامم القوية الشخصية لا تقبل شيئا يخالف تكوينها ومزاجها ، وانما تهضم ما تأخذ وتعيد بناءه وبذلك تترك عليه طابعها . واما ما نراه اليوم من اسلوبنا في ترك اذهاننا نهبة للفلسفات الوافدة فهو ولا شك مظهر من مظاهر السلبية التي صارت اليها الامة العربية . ولولا هذه السلبية لم تكن مستعمرين .

يضاف الى ذلك ان اسلافنا العظام لم يكتفوا بالتعريب وانما قدموا الترجمات للقراء العرب محفوفة بالمواشي والتعليقات المجزلة بحيث يلوح وكانهم كانوا يمتحنون الاراء الوافدة على محك الذهن العربي . وكانوا يضيفون الى الاصل الكثير من عندهم يجعلونه في مقدمة الكتاب فكان القارئ العربي يقرأ الترجمة ويقرأ بعدها رأي المفكرين فيها . وكان المفكرون بذلك يوجهون الامة كلها . وهذا الاسلوب في الترجمة

يجعل الاصل الغربي اغنى . ونحن على يقين من ان ت.س. ايلويت ، وجن بول سارتر وسواهما يكتسبون ابعادا جديدة من الخصوصية والايحاء حين تمر على اثارهم الروح العربية القوية الشخصية الواثقة بذاتها ، واذ ذاك يكون عطاؤهم لامتنا اعمق واغزر .

ومن الوسائل الحديثة التي نستطيع ان نتخذها لتنجو من مزلق الفكر المترجم الا تقدم المترجمات الا وهي مسبقة بمقدمات ضافية تكتبها افلام عربية رصينة متمكنة من الادب العربي تمكنها من الادب الغربي . ويكون هدف هذه المقدمات ان تشرح للقارئ العربي معاني هذا الادب الوافد شرحا وافيا يجعله يتذوقه تذوقا حقا ، كما انها تشرح للقارئ صلة هذا الادب بحياة العرب وتيارات الفكر فيه . ويأتي بعد ذلك جانب من المقدمة اخطر واهم وهو دراسة الاثر العربي من وجهة النظر العربية ، فاذا كان فيه خروج على تقاليدنا الاجتماعية او الادبية وفقت عنده وناقشته وفدته وانبتت بازائه المفهوم العربي على اساس نظرتنا القومية الحديثة بكل ما فيها من تقدمية وتحرف فكري . واذا وجدت اللغة في الاصل تخالف اتجاهات لغتنا درست ذلك وبينت ما فيه من امكانيات قد نستطيع استخدامها في لغتنا اذا ما رضى الجمهور المثقف العام . وبمثل هذه المقدمات يفتني الاثر الادبي ، ويكسب قارئنا ثقافة واسعة جديدة فضلا عن اعتنائه بالاستقلال الفكري والثقافة بالنفس .

واما ان تقدم آداب الغرب بلا مقدمات فان ذلك يلبس قراءنا بزيدهم جهلا بالفكر الوافد ، لا بل انه قد يسلم اذهن بعض القراء الى الفروغ والسطحية لانه يساعد القارئ على حفظ الاعلام العربية دون فهم . وتكاد هذه الظاهرة تكون ملحوظة عند طائفة من ادبائنا الناشئين .

ولا بد لنا من ان نقول كلمة عن اللغة . فان الترجمة العربية الجيدة هي التي تصوغ الاثر الغربي بلغة تحافظ على اساليبنا العربية من بلاغة وقواعد وتراكيب . وذلك على شرط سلامة الجو في الاكسر المترجم . والحق ان نقل اجواء الادب من لغة الى لغة لا يقتضي اطلاقا ان نستعمل اصطلاحات اللغة الاصلية واساليبها . ولذلك فان من الخطا ان يقع المترجمون في ترجمات حرفية : ترجم احدهم هذه العبارة The Reason Why فجعلها كما يلي « السبب لماذا » وكانت عنوانا لكتاب ديني . وما من شيء يقتل الاثار الادبية مثل هذه الحرفية التي شاعت لدى طائفة من المترجمين . وما الحرفية في الواقع الا استسلام المترجم الى ذهن المترجم عنه استسلاما اعمى . فهي اذا تأملناها لا تسيء الى اللغة العربية وحدها ، وانما تشوه فوق ذلك جو الادب المترجم افطع تشويه . فكأنها تسد باب الذهن العربي بازائه . وبذلك نخسر الجهد والوقت وفرصة تستفيد فيها الامة العربية من آداب الامم الاخرى .

نازك الملائكة

جامعة البصرة

فندق نيوبالاس

إدارة: فتمى نوفل

جناح خاص
للعملاء
أسعار معتدلة
مصعدان حديثان



وسط راق
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف

ت : ٤٥٩٣٦
س : ٧٩٧٩١

١٧ شارع سليمان الحلبي
(دوربر سابقا) القاهرة
تلف سينما المركز بمساردين

New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby
Telephone 45936 - Cairo